قصة الخلق

هناك تفاوت بين أسلوب الكتب الدينية وكتب العلوم المادية فى تفسيرها لمسألة خلق الكائنات، فالذى يعتقد بالقرآن الكريم يرى أن القرآن يبحث عن القصد والهدف من خلق السماوات والأرض. أما النظريات المادية حول الأرض والسماء فإنها خالية من أى هدف روحى، بل تبحث فى كيفية انفصال الأرض عن الشمس وعن إمكانية وجود المخلوقات هناك، أما الهدف من الإيجاد فإن النظريات المادية قاصرة عن إعطاء الجواب على ذلك. إذن هناك تفاوت بين الوجود والإيجاد. ففى الإيجاد تؤخذ بنظر الاعتبار ذلك المسائل الروحية والحقوق والواجبات والتكاليف والأحكام الإلهية وهنا يعتبر الإنسان أشرف المخلوقات، أما من وجهة النظر المادية فإن الإنسان يعتبر شأنه شأن أى مخلوق صغير مثل دودة الأرض. ولا يهمنا فى هذا الكتاب التعرض لهذه الأبحاث فكما قدمنا أن هدفنا أن نتعرض وبشكل مختصر لحياة الأنبياء.

أما قصة الخليقة فلها ارتباط بما نريد أن نبحثه باعتبار أن آدم عليه السلام أول المخلوقات وهو بداية الخلقة. وفى هذه القصص هناك مواضيع واضحة وأسرار غامضة لا يدركها إلا ذوو العلم والمعرفة فهناك عطاء من الحكمة والمعرفة فى الكتب السماوية بالرغم من الاختلاف الموجود فى تعبيراتها. وهذه نبذة عما جاء فى قصص الأنبياء فمن باب خلقة العالم لقد خلق الله سبحانه

وتعالى الأرض والسماء وما بينهما فى ستة أيام من أيام ذلك العالم الذى يعادل يومه ألف سنة من سنى عالمنا هذا.

إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق العالم بطرفة عين ولكنه تعالى أراد من ذلك أن يعلم عباده الصبر فى أعمالهم.

إن أول شىء خلقه الله سبحانه وتعالى هو القلم وإن كان ما موجود فى هذا العالم قد خط بالقلم، والمدة بين خلق القلم وخلق السماوات والأرض تقدر بستة آلاف سنة، وخلق بين السماوات أنوارا وخلق من هذه الأنوار ملائكة تسبح وتهلل الله تعالى ولا تغفل عن ذكره لحظة واحدة وخلق الأرض من الماء وأمر الرياح أن تهب على الأرض والشمس أن تشرق على الأرض بنورها، ثم خلق الجن والملائكة من النار والدخان ثم لما اقتضت الإرادة الربانية بخلق آدم قال للملائكة: اعلموا بأننى سوف أبعث إلى الأرض خلقا من غير جنسكم أخلقه من التراب والطين وسيكون خليفتى فى الأرض والحاكم فيها.

قالت الملائكة: إلهنا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك؟

فجاء الجواب: أيتها الملائكة أنا أعلم ما لا تعلمون.

قال تعالى فى كتابه الكريم:**{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ**

بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [1].

وأمر الله سبحانه وتعالى جبرائيل بأن يهبط إلى الأرض ويأتى بقبضة من التراب. وهبط جبرائيل على أرض الكعبة فاهتزت الأرض تحت قدمه وقالت: أعوذ بالله أن يأخذ منى ترابا أخشى أن يُخلق منه مخلوق يقوم بارتكاب الذنوب ويستوجب العذاب وأنا لا طاقة لى على تحمل العذاب.

فعاد جبرائيل وقال: إلهى أنت أعلم أن الأرض أقسمت علىَّ باسمك، وهبط ميكائيل أيضا وأقسمت عليه الأرض ورجع كذلك بيد خاليه.

وبعدها جاء الأمر إلى عزرائيل بأن يهبط ويأتى بقبضة من تراب الأرض فهبط عزرائيل إلى الأرض فأقسمت عليه الأرض بالله بأن لا يأخذ منها ترابا يخلق منه خلقا يعصى الله سبحانه وتعالى فيستوجب العذاب حيث لا طاقة لى على تحمل العذاب. فقال عزرائيل للأرض: إنك تقسمين علىَّ بمن بعثنى وأمرنى وهو يعلم كل شىء حيث أننى مأمور ومعذور.

ثم مد يده وأخذ حفنة من التراب ثم قال يا رب: أنت تعلم أننى أتيت بالتراب ولم أعتن بقسم الأرض على لأن إطاعة أمرك عندى أوجب.

فجاء الخطاب: إنك الآن أصبحت مهيمنا على الأرض

(1) سورة البقرة، الآية: 30.

وسوف أخلق هذا التراب خليفة وأجعلك مسلطا على روحه لكى تقبض روحه عندما يحين أجله.

فقال عزرائيل: سيصبح عبادك أعدائى؟

فجاءه الجواب: لا تخف سأبتلى كل واحد منهم ببلاء حتى لا يتخذونك عدوا. فمنهم من يُفرط فى الأكل والشرب ومنهم من يفرط فى الشهوات ومنهم من ينغمر فى طلب الجاه والرئاسة، ومن ذلك تنشأ الأمراض والأوجاع والحمى، ومنهم من يغرق ومنهم من يقتل فى الحرب، وسوف يكون موت كل شخص نتيجة لعشوائية وعدم مبالاته لن يكون لك أحد منهم عدوا.

والوارد من أن آدم عليه السلام خلق من الطبن وأنه لو خلق من طين واحد لما عرف الناس بعضهم بعضا ولكانوا على صورة واحدة، بل إنه خلق من سهل الأرض وحزنها ومرها وحلوها وعذبها ومالحها ومن جميع أشكالها وألوانها من أبيضها وأصفرها وأسودها وأشقرها إلى غير ذلك: ولذا ترى ألوان البشر مختلفة غاية الاختلاف فعن أمير المؤمنين عليه السلام أن الله تبارك وتعالى بعث جبرائيل عليه السلام وأمره أن يأتيه من أديم الأرض بأربع طينات طينة بيضاء وطينة حمراء وطينة غبراء وطينة سوداء وذلك من سهلها وحزنها ثم أمره أن يأتيه بأربع مياه ماء عذب وماء مالح وماء مر وماء منتن ثم أمره أن يفرغ الماء كله فى الطين فجعل سبحانه الماء العذب فى حلقه والماء المالح فى عينه والماء المر فى أذنيه والماء المنتن فى أنفه... إلخ.

وفى توحيد المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام... إنما جعل الماء العذب فى الحلق ليسوغ لـه أكل الطعام وجعل الماء المالح فى العينين إبقاء على شحمة العين لأن الشحم يبقى إذا وضع عليه الملح أو الماء الصالح، وأما المر فى الأذنين فلئلا تهجم الهوام على الدماغ ومن ذلك إنها وصلت إلى الماء المر فى الأذنين ماتت، ولربما تتعدى الهوام الماء المر وتصل إلى الدماغ لقوتها مع قلة الماء فى الأذنين ولعله لضعف المزاج لكونه مريضا أو شيخا كبيرا أو طفلا صغيرا.

بعد ذلك جاء الأمر إلى الملائكة أن يضعوا التراب بين مكة والطائف ثم تلبدت السماء بالغيوم ونزل عليه مطر الرحمة لمدة سنتين حتى لان التراب وأصبح طينا وبعد سنتين أصبح صلبا وسنتين ثالثة اتخذ هيئة كما أرادها الله سبحانه وتعالى، وبقى على هذا الحال سنين طويلة من سنين هذا العالم.

وجاءت المرحلة الأخرى حيث أمر الله سبحانه وتعالى جبرائيل وميكائيل وعزرائيل بأن يأتوا بالروح الإلهية لآدم، ولما أتوا بروح آدم فى طبق من نور إلى سماء الأرض اجتمعت الملائكة للنظر إليها، فأمر الله الملائكة بالطواف حول روح آدم سبع مرات قبل أن تلج فى جسده.

ومن تلك اللحظة بدأ إبليس بعصيانه فقال: إلهى إنك خلقتنى من نار وجسمى لطيف لأنك خلقته من نار فكيف أطوف حول تمثال من تراب لا يعلم شيئا، أمهلنى لكى أرى ماذا سيكون؟!

وأمر سبحانه وتعالى الروح بأن تلج الجسد الترابى لآدم ودخلت الروح وصار التمثال لحما ودما وعروقا وعظاما وتكونت الهيئة الآدمية، وقبل أن يكتمل ولوج الروح فى الجسد أراد آدم النهوض فقالت الملائكة: يبدو أن هذا المخلوق سيكون عجولا لأنه قبل أن يكتمل نصفه يريد القيام من مكانه وسرت الروح فى كافة أعضاء جسمه ثم علمه الله الأسماء الحسنى بعدها أخذ آدم يسبح بحمد ربه شاكرا له.

وأمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بأن يسجدوا لآدم، وسجدت الملائكة بأجمعها إلا إبليس أبى واستكبر وقال: أنا لا أسجد لمخلوق خُلق من التراب.

وعندما سأله البارى تعالى: ما منعك من السجود لمن خلقته بقدرتى ورحمتى ونفخت فيه من روحى؟

فقال إبليس: أنا أفضل منه لأنه خلق من التراب وأنا مخلوق من النار.

فقال له سبحانه وتعالى: ما دمت قد عصيت أمرى فإنك ملعون وبعيد عن رحمتى إلى يوم القيامة. قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه المجيد: **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}**[1] وقال تعالى فى مقام آخر موبخا إبليس على امتناعه أن يسجد له بقوله: **{مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ**

(1) سورة البقرة الآية: 34.

أَمَرْتُكَ} [1]. فقال لـه اللعين:{أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَـهُ مِـن طِينٍ} [2]. وورد فى مكان آخر قولـه تعـالى:{قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِـنْ خَلْفِهِـمْ وَعَـنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [3] وقولـه:{قَالَ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ} [4]. وقولـه:{فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ}[5].

روى فى مجمع البيان عن طاووس ومجاهد أن إبليس كان قبل أن يرتكب المعصية، ملكا من الملائكة إسمه عزازيل وكان من سكان الأرض، وكان سكان الأرض من الملائكة يسمون الجن ولم يكن من الملائكة أشد اجتهادا ولا أكثر علما منه، فلما عصى الله لعنه وجعله شيطانا وسماه إبليس يعنى العاصى.

قال إبليس مخاطبا الله سبحانه وتعالى: إلهى لقد عبدتك آلاف السنين وكنت من المقربين فأين أجر عبادتى لك؟ فأجابه البارى: أطلب ما تشاء.

فقال إبليس: أريد أن أبقى حيا لأنظر ماذا سيفعل هذا المخلوق. فأجابه: سأمهلك إلى الوقت المعلوم.

فساوم الشيطان وقال: إلهى إن أبقى حيا ويبقى الإنسان حيا

(1) سورة الأعراف الآية: 12.
(2) سورة الأعراف الآية: 12.
(3) سورة الأعراف الآيتان: 16، 17.
(4) سورة الأعراف الآيتان: 14، 15.
(5) سورة الكهف، الآية: 50.

فهذا قليل بحقى لأنى عبدتك آلاف السنين أريد أن تكون لى قدرة على أن أتكلم مع بنى آدم وأتعرف على أفكارهم. فكان إبليس أول من تكبر ومن بعبادته وساوم ونكث قوله الأول الذى طلب فيه الإمهال فى الحياة فقط.

فأجابه تعالى: بأن لك ذلك.

عندها قال إبليس: بما أمهلتنى فسوف أغوى أبناء هذا الخلق الجديد إلا المخلصين منهم الذين لا أقدر عليهم.

فقال تعالى: إنك لا سلطان لك على الصالحين الصادقين وسأملأ جهنم منك وممن اتبعك إلى يوم الدين. ومن هذه اللحظة نشأت العداوة بين إبليس وبنى آدم.

أما آدم فقد كان لوحده فى الجنة فأخذه النوم وكان يبحث فى نومه عن أنيس له من جنسه. فخلق الله سبحانه وتعالى حواء من طينته وعندما استيقظ من النوم وجد حواء إلى جانبه، عندها خاطبهما تعالى بأن اسكنا فى الجنة.

قال تعالى فى كتابه الكريم: **{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ}**[1].

قال أمير المؤمنين على فى نهج البلاغة: ثم أسكن سبحانه وتعالى آدم دارا أرغد فيها عيشه وآمن فيها محلته وحذره إبليس

(1) سورة البقرة، الآية: 35.

وعداوته فاغتره عدوه نفاسة عليه بدار المقام ومرافقة الأبرار فباع اليقين بشكه والعزيمة بوهنه واستبدل بالجذل وجلا وبالاغترار ندما ثم بسط الله سبحانه له فى توبته ولقاه كلمة رحمته ووعده المرد إلى جنته وأهبطه إلى دار البلية وتناسل الذرية.

يعتقد البعض بأن آدم وحواء مكثا فى الجنة سبع ساعات، وقال البعض أنهما مكثا عدة شهور وذلك لأن الساعات فى ذلك العالم تعادل أياما وكل يوم يعدل ألف سنة من سنينا والآن نتابع ما جرى لآدم عليه السلام.

* * * * * * * * * *